الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

الكلية : الآداب واللغات

القسم: اللغة والآداب العربي

عنوان الليسانس: الأدب العربي

الشعبة: دراسات أدبية

التخصص: أدب عربي

المادة : جماليات السرد العربي القديم

السنة الثالثة

السداسي :الخامس

المجموعة الثانية

محاضرات في مقياس:

جماليات السرد العربي القديم

الأستاذة: دربالي وهيبة.

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

السنة الجامعية-2021-2022

عنوان المحاضرة الثانية : خصائص السرد العربي القديم

أولًا – خصائص السرد العربي القديم:

سنتعرض في المحاضرة التالية للحديث عن خصائص السرد العربي ،ولكن في البداية نشير إلى اختلاف طبيعة النصوص السردية العربية القديمة ، ومن الصعوبة جمعها في خصائص موحدة، ومع ذلك سنتناول بعض الخصائص الفنية التي ميّزت النصوص السردية العربية القديمة ، ومنها مايأتي :

1-خاصية السخرية :

إن سمة **السخرية** طبعت معظم الأعمال السردية،التي صدرت في العصر العباسي « بدءًا من سخرية الجاحظ في كتابه البخلاء ، ومرورًا بتهريج أبي القاسم البغدادي في حكاية أبي المطر الأزدي، ومقامات بديع الزمان الهمذاني، وانتهاءًا بسخرية أبي العلاء المعري النقدية المريرة في رسالته الغفران».

انتشر استخدام أسلوب السخرية عند الأدباء، فمعظم الأعمال السردية في العصر العباسي انتهجت سبيل التهكم والسخرية من الأوضاع السائدة في المجتمع العباسي ، فظهرت السخرية عند أبي العلاء المعري في رسالته الغفران ، وحتى أسلوب السرد عند بديع الزمان الهمذاني مال لخاصية السخرية« وبديع الزمان الهمذاني عمل مقاماته المشهورة المنسوبة إليه ،وهي في غاية من البلاغة ،وعلو الرتبة في الصنعة ،ثم تلاه الإمام أبو محمد القاسم الحريري ،فعمل مقاماته الخمسين المشهورة فجاءت نهاية في الحسن».

إنّ ماميّز النصوص المقامية من حيث الشكل على فنون سردية أخرى هو عنايتها الفائقة بالجوانب البلاغية ،ومع الحفاظ على طابع السخرية فيها،وكما لايتردد الجاحظ في إلحاق العقاب بشخصياته القصصية السيئة والمتردية،والسخرية منها دعيًا المتلقي إلى مشاركته وجهة نظره «ومن أبرز الصفات الفنية التي تبدو في كتاب البخلاء هي السخرية ،فنلفي عليها نظرة سريعة ، وتعتبر السخرية من أبرز الصفات، التي يمتاز بها الجاحظ في كتابته حين يأخذ في النقد والتصوير ،بل لعلها من أكثرها شيوعًا في آثاره المختلفة ،حتى مايكاد القارئ المتمرس به يبرئ قطعة من قطعه الفنية من أن تكون بروح السخرية وأما في كتاب البخلاء خاصة ،فروح السخرية سارية في كل جزء من أجزائه».

اصطبغت قصص البخلاء عند الجاحظ بطابع السخرية ، ومثلت السخرية السمة الغالبة في تأليف جميع الحكايات التي تناولت البخل ،في أسلوب هزلي مناسب لطبيعة الموضوع «ولم تكن السخرية في البخلاء للجاحظ إلا غطاء شفافًا ينفذ منه المؤلف إلى أعماق النفس البشرية والمجتمع، ويترك للقارئ الضمني الحرية في اكتشاف أغوار مقاصده وصوره...وكانت سخرية الجاحظ نابعة من فلسفته للضحك ».

نجد أن توظيف السخرية عند الأدباء لغايات مختلفة، والهدف منها هو عرض الأديب لنقده في قالب فني ساخر وسادت السخرية في معظم قصص العصر العباسي متزامنة مع انتشار المجون واللهو في المجتمع ،وتراجع الأخلاق،والجاحظ مثلًا عندما يسخر من شخصياته ، فهو بذلك يوجه نقدًا لاذعًا لمجتمعه.

2- ظاهرة الفكاهة :

مماهو معلوم أنه قد توجد الفكاهة في بعض القصص العربية لخلق جو من المرح والترويح عن المتلقين «وصارت الفكاهة فنًا من فنون القول، وذوق الفكاهة يغلب على كتاب القرن الرابع الهجري». نذكر من أشهر أدباء الفكاهة بديع الزمان الهمذاني في مقاماته، والجاحظ كثيرًا ماكان يستخدم الإطار الفكاهي في حكاياته،

ليوجه نقده الهادف لعامة الناس «وظهرت سمة الفكاهة في القرنين الثالث والرابع الهجريين عند جملة من الكتاب ،الذين أخذوا يعرضون لهذه الظاهرة في كتبهم أوإنشاءاتهم ابتداءًا بالجاحظ ،وانتهاءًا بأبي الخطاب الصابي».

ظهرت الفكاهة في ثوب الدعابة والمزاج،وغاية السارد الترويح عن المتلقين وإمتاعهم،وكثُر استخدام الفكاهة في القصص الاجتماعي عند الجاحظ والهمذاني مثلًا ،وهو توجه خاص بالسرد لنقد المجتمع من طرف الأدباء عن طريق الفكاهة .

3- سمة العجائبية: يعد العجائبي «شكلًا من أشكال القصّ ،تتعامل فيه الشخصيات بقوانين جددة تُعارض قوانين الواقع التجريبي....ومن هنا كان إطلاق اسم القصة العجائبية، والحكاية العجائبية » .

نلاحظ بأن موضوع السرد العجائبي يثير الدهشة والاستغراب والاعجاب للمتلقي لكونه مخالف للوقائع الحقيقية،ولقد ظهرت صفة العجائبية في بعض النصوص السردية،وفي تشكل مكونات القص العجائبي نجد أنه« يتولد النص إلى نصوص أخرى على شاكلة الحكايات العجيبة ،ومئة ليلة وليلة ،وتحضر عوالم الجن والمردة في هه الحكاية ،كما يخرق إطار الزمان والمكان لتصبح أمام الزمان العجائبي ، والمكان العجائبي».

نجد أن سمة العجائبية غلبت على سياق سرد الحكايات الخرافية والشعبية ، وأخبار المهشمين من شطار ومغامرين ومن الأمور الخارقة للعادة في القصص الخيالي العربي مثل : قصص المغامرات عند الصعاليك، وفي السير الشعبية .

4- خاصية المفارقة :

تعد المفارقة من سمات السرد العربي القديم « وهي احتواء المتن السردي على المتناقضات،وذكر الشيء ونقيضه وظهرت سمة التناقض في أسلوب الجاحظ،فالجاحظ يمتلك القدرة على الاحتجاج للشيء ونقيضه ؛أن يحتج للبخل، ويظهره في صورة تدبير وإصلاح،أويحتج ضده،وإنَّ التناقض سمة من سمات نثر الجاحظ،واقتران عنده بالمقدرة البيانية وقوة الإقناع».

نرى بأن أسلوب المفارقة في السرد قد يؤدي لالتباس فهم المتلقي للقصة ،ومع ذلك أجاد الأدباء العرب في توظيف هذه الخاصية ،ولقد ركز الجاحظ كثيرًا على ظاهرة البخل، فنراه يؤديها تارة،ويذمها تارة أخرى حسب حال السياق القصصي،الذي يتعرض له، ولانلومه في ذلك «إذ أن البخل هو النقيض للكرم ،ليقول لنا المؤلف(الجاحظ) أن كل شيء تغير ،فهذا عصر انقلبت فيه المفهومات والقيم ».

ظهر التناقض كسمة من سمات أسلوب السرد في القصص الاجتماعي عند الجاحظ ؛ حيث قام بتوظيفه حسب غايته من التأليف والكتابة السردية، وكذلك نجد أنَّ « سمة الغرابة القابلة للتفسير العقلي قد شكلت معيارًا في صياغة فن الخبر عند الجاحظ».

لقد وظف الجاحظ خاصية الغرابة في قصصه ، ويمكن للقراء تقبلها وفهمها « ومامَيَّز أسلوب الجاحظ في السرد هو الجمع بين الأضداد، والتناقضات، والسخرية ،والحجاج ،والغرابة..الخ».

لقد كانت هذه بعض الخصائص الفنية، التي ظهرت في أسلوب السرد عند الجاحظ ،وهنا نشيد بدور الجاحظ الهام في تطور السردية العربية القديمة في الجوانب الفنية والمضمونية .

5 -المقدمة الإسنادية : ونعني بالمقدمة الإسنادية تلك الجمل الاستهلالية المتكررة في بداية النصوص السردية،وهي تتمتع بتأثير خاص في نفس المتلقي،وللمقدمة الإسنادية أهمية كبيرة،فهي تقع في مستهل القصة، وأول مايواجه الملتقي،ولذلك حرص الأدباء على انتقاء مقدماتهم الإسنادية في قصصهم،وظهرت المقدمة الإسنادية في معظم النصوص السردية ، فنجد أن ابن المقفع قد «أسند سرد قصصه في كليلة ودمنة إلى فاعل مجهول في كل في كل حكاية في عبارة "**زعموا**».

ومما ورد في "باب القرد والغيلم" في كتاب كليلة ودِمنة « قال القرد: زعموا أنَّ أسدًا كان في أجمة ومعه ابن آوى يأكل من فُضولِ صيده، فأصاب الأسد جَرَبٌ شديدٌ حتى ضعف فلم يستطع الصيد».

هنا فعل السرد نُسب إلى عدد من الرواة المجهولين في نقل القصص والوقائع ،وهو سمة غالبة على كامل قصص كليلة ودمنة «وتفتتح شهرزاد حكاياتها بعبارة "بلغني أنّ"،وكذلك نجد عبارة "كان يامكان"،التي نجدها في مطلع بعض القصص الشعبية،وعبارة"حدثنا عيسى بن هشام"الواردة على رأس كل مقامة من مقامات الهمذاني،وعبارة "حدثني" عند الجاحظ،وهي تشترك في أنها مجهولة راوي الخبر، وحرص السارد العربي القديم على احترام افتتاحية محدودة تتكرر بصفة ملحوظة،فهي تؤدي دورًا يشبه ذلك، الذي كانت تؤدي جملة "افتح ياسمم"الشهيرة في قصة علي بابا والأربعين لصًا،إذ تفتح أمام المتلقي أبواب العالم،الذي يخلفه العمل الأدبي».

نلاحظ اختلاف في صيغة المقدمة الإسنادية بين الجاحظ وابن المقفع وشهرزاد،وهو مايُفسَّر باختلاف بنية الحكايات المسرودة عندهم ، وتعدد غاياتهم من السرد القصصي.

6- قصر الأخبار : مال الأدباء إلى تنقيح المرويات من الأخبار، والتركيز على أهمها «والقصر الشديد لها ، فالعرب يعلون من شأن الإيجاز، الذي هو سمة البلاغة عندهم».

كما نعلم أن رواية الأخبار احتلت مكانة هامة في السردية العربية، واتخاذ العلماء سمة القصر في سرد الأخبار من الناحية الجمالية والبلاغية، التي رافقت معظم المؤلفات السردية العربية القديمة .

7 – السرد العربي طلبي: من خصائص السرد العربي القديم أنه طلبي« فشكلت عملية التحفيز للأدباء باعثًا مهمًا للكتابة السردية، فلم يؤلف "بيدبا" الفيلسوف"كتاب كليلة ودمنة من تلقاء نفسه؛وإنما استجابة لرغبة عبّر عنها دبشليم الملك وبطلب منه».

إن من عادة الملوك قديمًا طلب سماع القصص والحكايات من الأدباء ، وبذلك فمعظم الأعمال القصصية،وكانت تحت رغبة الملوك وبتوصيتهم، وتحفيز منهم مما أدى للتنافس في الكتابة الأدبية في مختلف السرد العربي القديم .

8 – توظيف الشعر: حصل توظيف الشعر في الأخبار القصصية « فقلما نجد أخبارًا خالية من الشعر، وكان الشعر وسيلة من وسائل تأكيد صحة الخبر إضافة إلى السند».

إنَّ الشعر هو ديوان العرب، وظل يمارس حضوره في فنون السرد ، ومنها: القصصي والرسائل والرحلات ..الخ ، ورافق الشعر سرد الأخبار، وجرى توظيف الشعر لتأكيد صحة المرويات من الأخبار ،وإضفاء طابع جمالي على السرد «وشد الخبر بالشعر– على حد تعبير معاوية بن أبي سفيان– وهي سمة عربية بامتياز لانجدها في خرافات كليلة ودمنة».

نجد أن سمة استخدام الشعر في الأخبار السردية الواقعية ، التي تؤرخ لشخصية أو واقعة تاريخية ،ولذلك لانجد الشعر في القصص الخرافي ؛لأن السارد لايهمه تأكيد صحة أحداث قصصه،فهي في معظمها من نسج خياله .

9- الحكاية الإطارية: إن الحكاية الإطارية ضرورية في بعض النصوص السردية، وكما أن «وجود الحكاية الإطارية هو تقليد راسخ اختص به السرد العربي القديم، فغدت الحكاية الخرافية في إطار حكاية ناظمة تتولى ترتيبها، وربطها بالحكاية السابقة ؛ فالحكاية الإطارية لكليلة ودمنة"ليست من نص هندي ؛ وإنما هي إطار عربي من إضافات ابن المقفع».

ظهرت الحكاية الإطارية في بعض الحكايات الخرافية مثل القصص على لسان الحيوان، فتكون القصة في إطار حكاية ناظمة تربطها بالحكاية ماقبلها في شكل مترتب ومنظم مثلما نعثر عليه في قصص كليلة ودمنة لابن المقفع ؛ فالحكاية الإطارية هي ليست من نص هندي ، وإنَّما من نص عربي ظهرت فيه الروح العربية .

10-التضمين السردي: EMBEDDING

إن التضمين السردي هو إقحام حكاية داخل حكاية أخرى ،وقد تكون "حكايات ألف ليلة وليلة "أبرز مثال على هذا التضمين ،ففيها تتضمن حكاية شهرزاد كل الحكايات الأخرى ؛أي تحتويها وتكتنفها ،وكذلك يشيع التضمين السردي في كتاب كليلة ودمنة،فلو نظرنا في "باب البوم والغربان" لوجدناه يتضمن حكايةً أساسية تتضمن بدورها سبع حكايات مستقلة ،ولوجدنا الحكاية الأولى من هذه الحكايات السبع تتضمن بدورها حكايتين ثانويتين».

يعد التضمين الحكائي من خصائص السرد العربي القديم،ويكثر التضمين في الحكايات ذات الطابع الشفهي « وظهرت سمة التضمين في نمط الحكايات الطويلة مثل قصص ألف ليلة وليلة،ويمكن القول بأن ألف ليلة وليلة هي نتاج تضمين (تداخل) فعدت خرافة شهرزاد نموذجًا عالميًا للحكاية الإطارية ، فهي الحكاية الكبرى،التي تندرج فيها حكايات أخرى متعاقبة (الصفحات الأولى إلى الأخيرة من الكتاب) ومن القصص التي حرص مؤلفوها على ربطها برباط فني واحد السيرة ،وهي مجموعة من القصص أكثر ارتباطًا مما هي عليه في ألف ليلة وليلة ».

اختص التضمين بنوع من القصص العربية الطويلة مثلما هو الحال في قصص ألف ليلة وليلة، فورد التضمين في متنها وشكلت خرافة شهرزاد الحكاية الكبرى من القصص تفرعت عنها مجموعة من الحكايات أخرى.

11-سمة السمر : ظهر لون السمر في الليالي ، ومن أبرزها ما جاء في قصص ألف ليلة وليلة ، والمغربي عنده مئة ليلة وليلة، وقد منحت الليالي العربية ميزة سردية نادرة للسرد العربي القديم».

ظهرت سمة السمر في سرد الليالي كنمط جديد في السرد العربي القديم، وبالأخص في الحكايات والقصص الطويلة ذات التوجه الخرافي في السرد «وانفرد السرد في قصص الليالي بميزة خاصة أشهرها ماجاء في حكايات ألف ليلة وليلة».

انتشر لون السمر في فنون سردية عربية عديدة ،وهو تتالي السرد عبر الليالي،وهو مايؤدي لطول الحكايات وتشابك أحداثها

*** ملاحظة** : تجدر الإشارة هنا إلى وجود اختلاف في طبيعة النصوص السردية العربية القديمة ، ومن الصعوبة جمعها في خصائص محددة مثل : العجائبية أو السخرية أو المفارقة .

ثانيًا -أنظمة السرد العربي القديم:

خضع التأليف في مجال السرد العربي القديم لنظام وأسس محددة ،وهيمنت بعض الظواهر السردية في بعض الخطابات السردية العربية ،ويمكن حصر الأنظمة السردية في أربعة نظم أساسية استأثرت بالصياغة السردية في النصوص السردية العربية القديمة ،وهي:

1-نظام التتابع: يعد نظام التتابع أهم نظام في تاريخ السرد العربي القديم « وقد هيمن نظام التتابع في السير والأخبار والمرويات التاريخية،واستأثر بالمكانة الأولى في المقامات ، والحكايات الشعبية والخرافية ، ومعظم الأشكال السردية القديمة».

ظهر نظام التتابع في معظم فنون السرد العربي القديم ، وفي السير الشعبية والخرافية والمقامات..الخ وفرض نظام التتابع وجوده في قصص ألف ليلة وليلة ؛ حيث نجد تتابع الليالي في السرد .

2-نظام التداخل: وأما نظام التداخل « ففيه صيغت المتون السردية على نحو تناثرت فيه مكوناتها في الزمان ثم يقوم المتلقي بإعادة تنظيمها ،فالحدث السابق لايكون سببًا للاحق ؛ وإنما يُجاوره أو يتداخل معه ،وقد تظهر النتائج قبل الأسباب».

وفي نظام التداخل يحصل تداخل للأحداث في القصص أو تتجاور تلك الأحداث ،وقد تتصدر قبل النتائج مسببات الحوادث وبذلك تكون مكونات القصة مبعثرة في الزمان ،فعلى سبيل المثال «تمتاز حكايات ألف ليلة وليلة بالتداخل السردي،إذتتولد الحكايات الواحد تلو الأخرى ، ونجد ذلك بارزًا في حكايات بعينها مثل:الحسن البصري ، وحكايات حاسب كريب الدين».

ظهر نظام التداخل في الحكايات العربية ذات الطابع الشفهي ،ومن ذلك أن طبيعة تشكل نص ألف ليلة وليلة كان في إطار التداخل السردي للأحداث والوقائع .

3-نظام التوازي : إن نظام التوازي هو أقل حضورًا في السرد العربي القديم «وفيه تتوازى المادة الحكائية على أكثر من محور، فتتوازى وقائعها في الزمان، وغالبًا مايستغني هذا النظام عن الاستهلال، ونجد هذا النظام في السير الشعبية،حيث تتوازى بعض الأحداث الحكائية فيما بينها».

إنّ ماميّز نظام التوازي هو الاستغناء عن عنصر الاستهلال رغم أهميته، ويكون هناك توازي لعناصر القصة كالأحداث مثلًا، ونجد ذلك واضحًا في السير الشعبية .

4- نظام التكرار :اختص نظام التكرار ببعض النصوص السردية العربية القديمة، ويتميز هذا النظام «بأن المتن فيه تعاد روايته، وهذا يؤدي إلى حركة الزمان في الأحداث اللاحقة ،إذ تعاد الخلفية الزمانية والمكانية ذاتها كما تتكرر الوقائع والأحداث والشخصيات».

إن مايحصل في إطار نظام التكرار هو إعادة رواية متن الحكاية،ويتبع ذلك تكرار للحوادث والشخوص،وربما هذا يؤدي لملل القارئ،ونرى بوجود اختلاف في ظهور تلك الأنظمة في النصوص السردية العربية القديمة،فنظام التتابع هو الأساس في بنية المقامة،وليس أساسيًا في الحكاية الخرافية..الخ، وكما نلاحظ بأنّ الزمان هو عنصر مشترك بين الأنظمة السردية.

اتصف السرد العربي القديم بلون خاص ميَّزه عن أنواع السرد في الآداب العالمية ،وانفرد السرد العربي بخصائص وسمات محددة ،وتحكمت في شكله أنظمة سردية ، ومما تقدم نستطيع القول بأن تلك الخصائص الجمالية السردية المذكورة آنفًا هي التي ميّزت معظم النصوص السردية العربية القديمة، وأكسبتها خصوصية ، وقلما نجد نصًا سرديًا عربيًا واحدًا اشتمل على كل تلك الخصائص الجمالية السردية .

قائمة المصادر والمراجع :

1-المصنفات الأدبية التراثية:

1. أبو العباس أحمد القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا،
2. الجاحظ :البخلاء ،تحك طه الحاجري ،
3. عبد الله ابن المقفع :كليلة ودِمنة ،تح:عبد الوهاب عزام وطه حسين ،

2-قائمة المعاجم العربية الحديثة:

1. سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية النقد الادب المعاصر
2. لطيفة زيتوني : معجم مصطلحات نقد الرواية

3- قائمة الكتب العربية الحديثة:

1. راكان الصفدي: الفن القصصي في النثر العربي حتى مطلع القرن الخامس الهجري
2. زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع
3. علي عزيز صالح: الفكاهة في النثر العباسي،
4. محمد مشبال: البلاغة و السرد " جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ ،
5. عبد الفتاح كيليطو: الحكاية والتأويل "دراسات في السرد العربي،
6. عبد الله إبراهيم:موسوعة السرد العربي،
7. ضياء الكعبي: السرد العربي القديم"الأنساق الثقافية وإشكالية التأويل،

4-المجلات العلمية المحكمة :

1-حكيمة حبي: قوانين التخاطب في كليلة ودمنة لابن المقفع، مجلة الخطاب ،